HNSJ Humanitarian & Natural Sciences Journal
ISSN: (e) 2709-0833
www.hnjournal.net
مجلة العلوم الإنسانية والطبيعية
مجلة علمية محكمة

عنوان البحث

التكامل المعرفي بين البلاغة والإعجاز
-الباقلاني أنموذجا-

د. بلهواري محمد[1]

[1] جامعة وهران1 أحمد بن بلة-وهران (الجزائر)،

تاريخ القبول: 2021/01/16م تاريخ النشر: 2021/02/01م

المستخلص

ارتبطت أكثر العلوم بالقرآن الكريم ارتباطا وثيقا، وتأتي البلاغة في ذروة علوم العربية اشتغالا بتدبر البيان القرآني وأسراره تدبرا يرشد إلى الفهم الصحيح لمراد هذا البيان. وإذا كانت البلاغة بجل ميادينها ومباحثها قد جاءت خدمة للبيان القرآني، فإنّ أخص هذه الميادين وتلك المباحث بهذه الخدمة الجليلة هو الإعجاز البلاغي للقرآن الكريم. ومن اللغويين القدامى الذين تحدّثوا عن بلاغة الإعجاز القرآني منهم: أبو بكر محمد بن الطيب الباقلاني. ونظرا لما لمسته في هذه الدراسة من قوة إبلاغية، وتلوين دلالي طبقا لما تقتضيه الأحوال، ففضّلت أن تكون الإشكالية كالآتي:

– ما قيمة الإعجاز البلاغي في القرآن الكريم؟ وكيف نظر إليه القدماء من أسلافنا العلماء، وهل هناك علاقة تكاملية بين البلاغة والإعجاز؟

وللإجابة عن هذه الأسئلة اعتمدت عل المنهج الوصفي التحليلي في محاولة التطرّق لظاهرة الإعجاز البلاغي، والاستدلال بالنصوص القرآنية وتحليلها والوقوف على جانب الجمالي فيها.

الكلمات المفتاحية: البلاغة، الإعجاز، التكامل، البيان، الباقلاني.

RESEARCH ARTICLE

COGNITIVE INTEGRATION BETWEEN RHETORIC AND MIRACLE - AL-BAQALANI AS A MODEL

Dr. Belhaouari Mohammed[1]

[1] **University of oran1 algeria**

Accepted at 16/01/2021 **Published at 01/02/2021**

Abstract

Rhetoric comes the at the height of the Arabic language sciences dealing with the Quranic eloquence and itssecrets to lead to better understanding of it.

Thus;rhetoric with its different fieds and sobjet com to serve the Quranic eloquence, one of this specific fiuds is the rhetorical miracle in the holy Quran.

One of the ancient ligwists who have spoken about the Quranic miracle is abou bakr ben tayab albakilani.

And in view of the informational power I touched in this study, and the semantic coloring according to the circumstances, I preferred that the problem be as follows:

What is the value of the rhetorical miracles in the Holy Quran? How did the ancient scholars of our ancestors view it, and is there a complementary relationship between rhetoric and miracle?

To answer these questions, I relied on the descriptive and analytical approach in trying to address the phenomenon of rhetorical miracles, inferring the Qur'anic texts, analyzing them, and standing on the aesthetic side in them.

Key Words: Rhetoric; miracle; Cognitive; eloquence; albakilani.

1. مقدمة:

تعدّ البلاغة العربية بمختلف مباحثها محورا مهما في خدمة القرآن الكريم، فهي تعتبر الدعامة الأساسية لفهمه وتبيّن معانيه وبيان إعجازه، وفصاحته اللغوية، إذ تعدّ البلاغة والإعجاز توأمين يصعب التمييز بينهما، ولهذا جل علماء اللغة والبلاغة تكلموا في مزاياه والوصف الذي من أجله صار القرآن معجزا.

ذلك أن قضية الإعجاز القرآني احتلت مكانة بارزة في توجيه حركة التأليف النقدي البلاغي عند العرب، إذ إن القرآن ومحاولة إثبات إعجازه بيانيا، كان موضوعا حافزا للتأليف البلاغي عند جمهرة علماء المسلمين على اختلاف منازعهم ومشاربهم من لغويين وأدباء ونظار، وارتباط قضية الإعجاز القرآني بالبلاغة متأت من أحد أهم وجوه إعجاز القرآن الكريم هو وجهه البلاغي، ولهذا قفد طرحت كثير من الملاحظات والآراء البلاغية فيما ألف من كتب في هذ المجال، والتي خلّفت هذه المجهودات العلمية ذخيرة كبيرة من الكتابات الشارحة لهذا التراث الغني في ذاته، والبحث الحالي هو محاولة متواضعة لمعالجة بعض هذه التحديات، ولمناوشة بعض الأسئلة التي تطرح نفسها على الحقل المعرفي المعني بدراسة التراث البلاغي القديم.

ويعدّ الباقلاني من أولئك العلماء الذين تشعبت معارفهم، وتنوعت ثقافتهم لتشمل العديد من العلوم والفنون، وإن غلبت عليه علوم البلاغية والنقدية وعلم الكلام، فإن ذلك ربما كان يرجع إلى غيرته الشديدة على قوميته العربية ولغتها وآدابها في عصر انفتحت فيه الحضارة العربية على كل العلوم والثقافات، وظهر فيه ألوان من العلوم والفنون لم تألفها من قبل.

ولقد ساهم الباقلاني في تطور الإعجاز البلاغي للقرآن مساهمة تجدر بأن تذكر، وتظهر هذه المساهمة جليّة للعيان في كتابه" الإعجاز البلاغي" حيث أنه نثر بين دفّتيه عدّة أراء كانت ولا تزال محط اهتمام دارسي البلاغة العربية.

ونظرا لما لمسته في هذه الدراسة من قوة إبلاغية، وتلوين دلالي طبقا لما تقتضيه الأحوال، فضّلت أن تكون الإشكالية كالآتي:

– ما قيمة الإعجاز البلاغي في القرآن الكريم؟ وكيف نظر إليه القدماء من أسلافنا العلماء، وهل هناك علاقة تكاملية بين البلاغة والإعجاز؟.

وللإجابة عن هذه الأسئلة اعتمدت عل المنهج الوصفي التحليلي في محاولة التطرّق لظاهرة الإعجاز البلاغي، والاستدلال بالنصوص القرآنية وتحليلها والوقوف على جانب الجمالي فيها.

أسباب الدراسة:

– اهتمامنا بالقرآن الكريم وعلوم اللغة العربية، ورغبتنا البحث في هذا المجال.

– يعدّ كتاب الباقلاني واحدا من الكتب التي تستحق الدراسة من الناحية البلاغية، فقد ظهرت جهوده الجليّة في مجال تطبيق الدرس البلاغي.

– قوّة وغزارة المادّة العلمية الموجودة في الكتاب والتي ردّ بها الباقلاني على شبهات أعداء الإسلام.

2. مفهوم التكامل المعرفي :

ترتبط المعرفة بالفهم والإدراك، الذي يتأتى من خلال التأمل في طبيعة الأشياء، وتقصي الحقائق، بحثا عن الاكتشاف والتعلم والتطور.

والمعرفة أوسع وأشمل من العلم، لأنها تتضمن معارف علميّة وغير علميّة، بينما العلم فهو ضرب من المعرفة المنظمة التي تستهدف الكشف عن المجهول، فتنظر له، وتقنّنه وتنقله من التجريد إلى التجريب.

فالمعرفة تشبه التصور، والعلم يشبه التصديق، وكلاهما يسعى إلى إحداث التكامل في نقل المعارف وتطوير المعلومات وتسهيل التواصل والاتصال بين شتى العلوم.

وللتكامل المعرفي إيحاءات ودلالات، ومنطلقات ومرجعيّات، وخلفيات وغايات، ومما يوحي به هذا المصطلح، الموسوعية في المعارف وشموليّة الثقافة، والإلمام بكثير من العلوم (رفاس، 2013، الصفحات ص64-65).

وقد تحدّث العلماء قديما عن ضرورة التكامل بين العلم والعمل، كما التفتوا أيضا إلى ضرورة تكامل البحوث العلمية في

جانبيها، النظري والتطبيقي، وكان لظهور العلوم البينية تأكيد على ضرورة الإفادة من تقدّم العلوم على بعضها البعض، فيحدث التلاقح والتعاون والتداخل فيما بينها.

وأصالة هذه الفكرة نابعة من كون القرآن المنطلق الأسمى للشمولية والتكاملية العلمية، وفهم دلالته وسبر أغواره يستلزم تكاملا معرفيا، لأنه نص تتجاذبه مجموعة من المعارف والعلوم، بل كان المحرك الأساس وراء النهضة العلمية التي عرفها العالم الإسلامي والمحفز لنشأة عدد من العلوم العربية والإسلامية وتطويرها، فالنحو نشأ بسبب خطأ في قراءة النص القرآني، والبلاغة تطوّرت في أحضان الإعجاز.

3. العلاقة بين البلاغة والإعجاز:

القرآن العظيم معجز من وجوه متعددة، من حيث فصاحته وبلاغته ونظمه وتراكيبه وأساليبه وما تضمّنه من أخبار ماضية ومستقبلية وما اشتمل عليه من أحكام جليّة، وقد تحدّى ببلاغة ألفاظه فصحاء العرب كما تحدّاهم بما اشتمل عليه من معان صحيحة كاملة وهي أعظم في التحدّي عند كثير من العلماء.

ولقد انبثقت جلّ العلوم التي خلّفها علماؤنا حول القرآن الكريم، وينشؤون من حوله العلوم التي تساعد على فهمه، وعلى استنباط معانيه، وكل ما يكفل الاستفادة العظمى من كلام الله تعالى.

وكانت البلاغة العربية من هذه العلوم، منذ أن كانت بدايات متواضعة إلى أن مخضتها التجارب، من خلال تتابع نظر العلماء الأفذاذ فيها، تحدوهم العزيمة والإرادة، فأصبح للبلاغة شأن عظيم، عرف قدرها كل من اشتغل بتفسير القرآن الكريم، حتى وجد أنّ العلماء يجعلونها من الأعمدة الأساسيّة لكل طامح إلى تفسير كلام الله تعالى.

وبما أنّ البلاغة شاملة للألفاظ والمعاني، فلا بد أن تكون الكلمات المشتملة في الكلام البليغ فصيحة، ويكون الكلام جيّدا باعتبار المعنى كما هو معروف في كتب البلاغة، فهي أخصّ من الفصاحة، حيث يقال: "كل كلام بليغ فصيح، وليس كل كلام فصيح بليغا" (الأثير ض.، 1983، صفحة 26 ج1)، فالفرق بين الفصاحة والبلاغة، أنّ الفصاحة مقصورة على وصف الألفاظ، والبلاغة لا تكون إلا وصفا للألفاظ مع المعاني، ولذا لا يقال في كلمة واحدة أو أكثر من واحدة التي لا تدلّ على معنى مع كونها تفضل عن مثلها بليغة، بل يقال فيها إنها فصيحة (سنان، د ت، صفحة 21).

وعلم البلاغة كما ذكرنا من قبل منَ العلوم التي لا ينكر فضائلها ولا ينسى مناقبها، فهو علم يضيء الأذهان بضوئه المتلألئ، ويؤثر في الناس بأسراره النيّرة، قال أبو الهلال العسكري:" وقد علمنا أنّ الإنسان إذا أغفل علم البلاغة، وأخلّ بمعرفة الفصاحة لم يقع علمه بإعجاز القرآن من جهة ما خصّه الله به من حسن التأليف، وبراعة التراكيب، وما شحنه به من الإيجاز البديع، والاختصار اللطيف، وضمّنه من الحلاوة، وجللّه من رونق الطلاوة، مع سهولة الكلمة وجزالتها، وعذوبتها وسلاستها، إلى غير ذلك من محاسنه التي عجز الخلق عنها، وتحيّرت عقولهم فيها" (العسكري، د ت، صفحة 2 ج1)، وهو العلم الذي يميّز الجيّد من الرديء والأفضل من المفضول والحسن من القبيح، وهو أيضا يعلّمنا أداء المعنى الواحد بطرق مختلفة بعضها أولى من بعض، فالعارف بهذا العلم يلتقط الأساليب الجيّدة ويترك ما ليست جيّدة، وهو يُعلّم إطلاق القول مطابقا لمقتضى الحال.

ومن هنا فهي زريعة لكشف الأستار للمزايا والمحاسن القرآنية، فالعارف بدقائق اللغة ورموزها يتطرّق إلى الإعجاز القرآني الذي بذل العلماء جهودهم في الكشف عن وجوهه.

وأمّا الإعجاز فهو من باب الإفعال، وكلمة الإعجاز تعني جعل الغير عاجزا، قال الخليل ابن أحمد الفراهيدي:" أعجزني فلان إذا عجزت عن طلبه وإدراكه" (أحمد، 1409، صفحة 215ج1)،أي: أنّ الله تعالى جعل القرآن الكريم معجزة خالدة إلى يوم القيامة لإثبات حقّانية القرآن ونبوّة محمد صلى الله عليه وسلم، فتحدّى القرآن العالم من الإنس والجنّ، فقال تعالى: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ بَلْ لَا يؤْمِنُونَ فلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ﴾[الطور33،34]، وهذا التحدّي كان بإتيان مثل القرآن كله في الكيفية والكميّة، ولكنهم عجزوا عن الإتيان بمثله، لأن القرآن الكريم هو الكلام المعجز الذي بقي إعجازه إلى الأبد، فلم يستطع أحد الآن ولن يستطيع في المستقبل أحد من الناس.

ومن هنا يتبيّن أنّ وجه الإعجاز ما تضمّنه القرآن من المزايا الظاهرة والبدائع الرائقة، في الفواتح والمقاصد والخواتيم في كل سورة وفي مبادئ الآيات وفواصلها، قال صادق الرافعي: والمعوّل على ثلاث خواص (الرافعي، 2015، صفحة 133):

* الفصاحة في ألفاظه كأنّها السلسال.

* البلاغة في المعاني بالإضافة إلى مضرب كل مثل ومساق، كل قصة وخبر في الأوامر والنّواهي، وأنواع الوعيد ومحاسن المواعظ والأمثال وغيرها ممّا اشتمل عليه، فإنها مسوقة على أبلغ السياق.

*صورة النظم، فإنّ كل ما ذكره من هذه العلوم مسوق على أتم نظام وأحسنه وأكمله.

ومن خلال ما سبق، أنّ وجه الإعجاز الفصاحة وغرابة الأسلوب، والسلامة من جميع العيوب، وأنّ ما فيه من النظم والتأليف والترصيف وأنّه خارج عن جميع وجوه النظم المعتاد في كلام العرب ومباين لأساليب خطاباتهم، وغير ذلك مقترنا بالتحدّي، قال: " واعلم أن شأن الإعجاز عجيب يدرك ولا يمكن وصفه كاستقامة الوزن يدرك ولا يمكن وصفها وكالملاحة، ومدرك الإعجاز عندي هو الذوق ليس إلا، وطريق اكتساب الذوق طول خدمة هذين العلمين، نعم للبلاغة وجوه ملتثمة ربما تيسرت إماطة اللثام عنها لتجلي عليك" (الباقلاني، 1997، صفحة 416).

ويمكننا أن نقول، إنّ أعظم وجه للإعجاز في القرآن الكريم هو إعجاز البيان والنّظم، وذلك لأنّ كل وجوه الإعجاز الأخرى تكون في الآية والآيات وربما السورة؛ إلا أنّ البيان والنظم شمل جميع آيات وسور القرآن الكريم؛ ولأنّ العرب أيضا أمة بيان وفصاحة لا أمة تشريع أو حقائق علمية فناسب أن يكون التحدّي به موافقا لما جبلوا عليه.

يقول الدكتور عشراتي: "إنّ الإعجاز إنّما حصل للقرآن من جهة نظمه الممتنع، لأنه عبّر عن المعاني المبتكرة بالمتغيّر من الألفاظ" (عشراتي، 1998، صفحة 25).

ولقد ربط العلماء بين البلاغة والإعجاز، فالبلاغة ما هي إلا سبيلا لبيان مناط الإعجاز، يقول ابن خلدون: " أنّ ثمرة هذا الفن إنّما هي في فهم الإعجاز من القرآن؛ لأنّ إعجازه في وفاء الدلالة منه بجميع مقتضيات الأحوال منطوقة ومفهومة، وهي أعلى مراتب الكمال، مع الكلام فيما يختص بالألفاظ في انتقائها وجودة رصفها وتركيبها، وهذا هو الإعجاز الذي تقتصر الأفهام عن دركه" (خلدون، د ت، صفحة 708).

وقد استمر هذا المفهوم عند البلاغيين المحدثين، حيث يذكر المراغي: "أنّ البلاغة بها نعرف وجه إعجاز القرآن، وندرك ما فيه من خصائص البيان، ونفهم براعة أسلوبه، وانسجام تأليفه، وسهولة نظمه وسلامته وعذوبته وجزالته" (المراغي، بيروت، صفحة 22).

ومن هنا يكمن التكامل المعرفي بين البلاغة، وبين الكشف عن وجوه الإعجاز في القرآن الكريم، وكون الإعجاز القرآني إعجازا يرجع إلى فصاحته، وبلاغته ونظمه يكاد يكون موضع إجماع بين من كتبوا في الإعجاز قديما وحديثا إضافات أخرى كالإخبار عن الغيوب، وصدق الوعد والوعيد والخبر قديما، وكالإعجاز العلمي حديثا.

ورغم هذا كله، فإنّ المذهب المختار في الكشف عن وجوه الإعجاز القرآني هو المذهب البلاغي بما تحمله من معان تدخل تحت مفهوم البلاغة أو النظم (المطرقي، 1996، صفحة 8)، وبهذا اكتسبت البلاغة العربية منزلة رفيعة بين العلوم الإسلامية، وارتبطت بكتاب الله العزيز توضيحا وتفسيرا وبيانا وإعجازا.

4. ترجمة الباقلاني: أبو بكر محمد بن الطيب (ت:403هـ):

كان له لسان بارع في الجدل والاحتجاج، اهتم بمباحث إعجاز القرآن، حيث يقول عن إعجاز القرآن البلاغي: " إنّه بديع النظم عجيب التأليف منتهاه إلى البلاغة إلى الحدّ الذي يُعلم عجز الخلق عنه" (الباقلاني، صفحة 69)، ومعنى ذلك: أن الذى أطلقه العلماء في هذا الوجه هو على هذه الجملة، أما هو فقد كشف الجملة التى أطلقوها، وفصل ذلك بعض التفصيل، حيث يقول: " فالذي يشتمل عليه بديع نظمه المتضمن للإعجاز وجوه: منها ما يرجع إلى الجملة، وذلك أن نظم القرآن على تصرف وجوهه، وتباين مذاهبه خارج عن المعهود من نظام جميع كلامهم، ومباين للمألوف من ترتيب خطابهم، وله أسلوب يختص به، ويتميز في تصرفه عن أساليب الكلام المعتاد " (الباقلاني، إعجاز القرآن، صفحة 69).

وقد استهل الباقلاني كتابه (إعجاز القرآن) بالتعرّض لمطاعن الملاحدة على أسلوب القرآن الكريم، مبيّنا أنّ الحاجة إلى الحديث في إعجاز القرآن أمس من الحاجة إلى المباحث اللغوية والنحوية.

ويصرّح بأنه سيضيف على من سبقوه، ويرد ردّا عنيفا على من علّلوا الإعجاز بالصَّرفة، ثم يُبيّن وجوه الإعجاز في رأيه

ويردّها إلى ثلاثة أوجه، ويجعل الوجه الثالث: بديع نظمه وعجيب تأليفه وتناهيه في البلاغة.

وممّا يكشف عن روعته أنّ الكلمة منه إذا ذكرت في تضاعيف الكلام تتألّق بين جاراتها تألّقا، وينوّه بخلو القرآن من اللفظ الوحشيّ والغريب المستنكر والصّنعة المتكلّفة.

ويتحدّث الباقلاني أيضا عن كيفية الوقوف على إعجاز القرآن، فيذكر أنّ ذلك لا يتأتى إلا من عرف وجوه البلاغة العربية، وتكوّنت له فيها ملكة يقيس بها الجودة والرّداءة في الكلام ويعرف مراتبه في الفصاحة، وهذا سرّ الإعجاز عنده، لأنه لم يجمع أحد قبل القرآن هذه الطبقات الثلاث من البلاغة مهما أوتي من فصاحة ودراية باللغة وأسرارها، ليبقى قاصرا في ذلك، وهذا سر عجز العرب عن معارضته، لأنّ الإحاطة بجميع ألفاظ اللغة مفردات وتراكيب وإدراك جميع المعاني التي تُحمل عليها تلك المفردات والتراكيب إضافة إلى المعرفة التامة بترتيب هذه المفردات (النظم) في الوضع بحيث تكون كل لفظة في محلها اللاّئق لها والخاص بها (عباس، 2009، صفحة 70)، والمعنى أن القرآن خارج عن المألوف من كلام البشر، والمعروف من تنظيم خطابهم، فليس هو بالشعر ولا بالنثر، وليس هو بالسجع إلى آخر ما هو معروف للبشر من أجناس الكلام، كما أنّه خارج عن المألوف من كلام الجنّ أيضا، وأنّ القرآن الكريم قد اشتمل على كل الأساليب البلاغية التي تبنى عليها أجناس الكلام البشري من إيجاز وإطناب وحقيقة ومجاز، واستعارة وتصريح، كل ذلك ممّا يتجاوز حدود كلامهم في الفصاحة والبلاغة، حيث يقول: " إننا إذا وصفنا عبارة قرآنية، في ثنايا أيّ كلام نظما كان أم نثرا، فإنها تكون هي الواسطة العقد في هذا الكلام، كالدرّة التي ترى في سلك من خرز" (الباقلاني، إعجاز القرآن، صفحة 42)، ويذكر عشرة أوجه لهذا النظم البديع الذي تضمّنه القرآن الكريم في كتابه (إعجاز القرآن)، حيث يرى أنّ التشبيه أو الاستعارة أو التجنيس ليست بحد ذاتها معجزة، وإنّما الإعجاز هو صوغ العبارة أو نظمها صوغا لا يمكن لبليغ أن يأتي بمثله.

وهذا الكلام طوّره الجرجاني وجعله نظرية لمن أراد البلاغة أو سعى في سبيل الفصاحة، والنظم عنده هو ترتيب الألفاظ في النطق حسب ترتيبها في النفس وفق معاني النحو حسب الوضع العربي، ثم جاء بعده الإمام الزمخشري فطبّق نظرية هذا الوجه الإعجازي تطبيقا علميا على جميع سور القرآن الكريم في تفسيره الكشاف (ساسي، د ت، صفحة 33)، وهذا بعد أن كانت لا تعدو آيات بعينها في القرآن أو سورة أو سورتين في أحسن الأحوال حتى كان هو الذي عمّمها في القرآن الكريم كله.

وكان الباقلاني دائما يختبر ذائقة قارئه فيذكر مثلا أنّ ثمّة فرقا دقيقا بين كلمة الصبح، وكلمة الفجر، وهذا الفرق يجعل لكل لفظة سياقا لا تصلح فيه الأخرى، وقد أبان عن هذا بيانا يدلّ على وضوح تصوره وقوة إحساسه بما يقول، ثم قال: "فإن كنت لا تعرف الفصل الذي بينا بين اللفظتين على اختلاف مواقع الكلام، ومتصرفات مجارى النظام، لم تستفد مما نقر به عليك شيئاً، وكان التقليد أولى بك، والاتباع أوجب عليك، ولكل شيء سبب، ولكل علم طريق، ولا سبيل إلى الوصول إلى الشيء من غير طريقه، ولا بلوغ غايته من غير سبيله" (الباقلاني، إعجاز القرآن، صفحة 184)، ويستدلّ بقوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَبلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَالْأَحْزَابُ مِنْ بعْدِهِمْ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ ﴾[غافر5] ، ويقف عند كلمة (ليأخذوه) ويشير إلى أنك لا تجد كلمة تعطى عطاءها في هذه الآية، لو قلت: (يقتلوه) أو (ليرجموه) أو (لينفوه) أو (ليطردوه) أو (ليهلكوه) كل ذلك ليس فيه ما في كلمة (ليأخذوه) (موسى، 1997، صفحة 187).

ويبيّن الباقلاني استمرار القرآن على نسق واحد من البلاغة في شتى الموضوعات والأحوال، فيقول: " والمعنى الرابع: أن كلام الفصحاء يتفاوت تفاوتاً بيناً في الفصل والوصل والعلو والنزول، والتقريب والتبعيد، وغير ذلك مما ينقسم إليه الخطاب عند النظم، ويتصرف فيه القول عند الضم والجمع" (الباقلاني، إعجاز القرآن، صفحة 70)، والقرآن على اختلاف فنونه، وما يتصرف فيه من الوجوه الكثيرة، والطرق المختلفة

يجعل المختلف كالمؤتلف، والمتباين كالمتناسب، والمتنافر في الأفراد إلى حد الآحاد.

وهذا أمر عجيب، تبين به الفصاحة وتظهر به البلاغة، ويخرج معه الكلام عن حد العادة، ويتجاوز العرف.

ويذكر الباقلاني: "أن نظم القرآن وقع موقعاً في البلاغة يخرج عن عادة كلام الجن،كما يخرج عن عادة كلام الانس، فهم يعجزون عن الإتيان بمثله كعجزنا، ويقصرون دونه كقصورنا " (الباقلاني، إعجاز القرآن، صفحة 71).

ويتحدّث عن كيفية الوقوف على إعجاز القرآن، حيث يقول: " أن الذى ينقسم إليه الخطاب، من البسط والاقتصار، والجمع والتفريق، والاستعارة والتصريح، والتجوز والتحقيق، ونحو ذلك من الوجوه التي توجد في كلامهم – موجود في القرآن، وكل ذلك مما

يتجاوز حدود كلامهم المعتاد بينهم في الفصاحة والابداع والبلاغة " (الباقلاني، إعجاز القرآن، صفحة 71).

ولقد بحث الباقلاني في كتابه كثيرا من الموضوعات البلاغية، كالإيجاز، والتشبيه، والاستعارة، والتلاؤم، والفواصل، والتجانس، والتصريف، والتضمين، والمبالغة، وحسن البيان (الباقلاني، إعجاز القرآن، صفحة 262)، وهو في تلك المباحث يقارن ما جاء عن العرب في أشعارها، بما جاء في القرآن الكريم، ويثبت تميّز القرآن بروعة البيان. ومن بين هذه المباحث ما يلي:

1.4 الإيجاز: فالقصد به الإتيان باللفظ القليل للمعنى الكثير، وهو نوعان: قصر وحذف.

أمّا الحذف فإسقاط الكلام بقصد التحقيق دون إخلال باللفظ أو المعنى، ومنه قوله تعالى: ﴿وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴾ [يوسف82]، إذ الأصل سؤال أهل القرية، لا قرية في ذاتها، ولذا جاءت على سبيل المجاز.

ومثاله أيضا عن الحذف قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَى بَلْ لِلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعًا أَفَلَمْ يَيْأَسِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعًا وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُمْ بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِنْ دَارِهِمْ حَتَّى يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾ [الرعد31]، إذ حذف الجواب هنا، والذي تقديره: (لكان هذا القرآن)، وإنّما حذف الكلام للتأمّل والتدبر في عظمته تعالى، ولأنّ النفس دائما تتساق وراء الجواب، إذ ترك الله سبحانه الآية محذوفة الجواب، بالرغم من ذلك لم يحدث أي خلل، إذ جاءت متناسقة اللفظ والدلالة معا، وأحيانا الحذف يكون أبلغ من الذكر، وهذا ما أوجبه سياق الآية الكريمة.

وأمّا الإيجاز بالقصر دون الحذف فهو أغمض من الحذف، وإن كان الحذف غامضا للحاجة إلى العلم بالمواضع التي تصلح من المواضع التي لا تصلح كقوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ﴾ [البقرة179]، ومنه قوله تعالى: ﴿يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ، هُمُ الْعَدُوُّ﴾[المنافقون4]، وقد استحسن الناس من الإيجاز قولهم: القتل أنفى للقتل، فنجد بينه وبين لفظ القرآن تفاوت في البلاغة والإيجاز، حيث يظهر من أربعة أوجه: أنه أكثر في الفائدة، وأوجز في العبارة، وأبعد من الكلفة بتكرير الجملة، وأحسن تأليفا بالحروف المتلائمة.

2.4 التشبيه: فهو العقد على أن أحد الشيئين يسد مسد الآخر، إمّا حسا أو عقلا، ومنه قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُواْ أَعْمَالُهُم كَسَرَابٍ بِقِيعةٍ يَحْسَبُهُ الْظَمْآنُ مَاءً، حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئاً [النور39] ، والمعنى هذا بيان قد أخرج ما لا تقع عليه الحاسة، إلى ما تقع عليه الحاسة، وقد اجتمعا في بطلان المتوهم مع شدة الحاجة وعظم الفاقة.

ولو قيل: يحسبه الرائي ماء، ثم يظهر أنه على خلاف ما قد رأى لكان بليغا، وأبلغ منه لفظ القرآن، لأن الظمآن أشد حرصا عليه، وتعلق قلب به، ثم بعد هذه الخيبة حصل على الحساب الذى يصيره إلى عذاب الأبد في النار، نعوذ بالله من هذه الحال.

وتشبيه أعمال الكفر بالسراب من حسن التشبيه، فكيف إذا تضمّن مع ذلك حسن النظم، وعذوبة اللفظ، وكثرة الفائدة، وصحة الدلالة.

3.4 الاستعارة: وهي ضرب من التشبيه، مع وجود قرائن إمّا لفظية أو عقليّة، ومنه قوله تعالى: ﴿وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا﴾[الفرقان23]، أي: قدمنا هنا عمدنا، وقدمنا أبلغ منه، لأنه يدل على أنه عاملهم معاملة القادم من سفر، ولأنه من أجل إمهاله لهم كمعاملة الغائب عنهم ثم قدم فرآهم على خلاف ما أمرهم، وفى هذا تحذير من الاغترار بالإمهال.

وغيرها كثير، إذ جاءت في صور رائعة ذات نسق يجذب الأنظار، دون أن يحسّ المتلقي لها.

4.4التلاؤم: ويقصد به تعديل أو ترتيب الحروف في التأليف، أي مناسبة حروف الكلم، ليأتي الأخير بدوره ملائما لسابقه ولاحقه، أو هو حسن الكلام في السمع، وسهولته في اللفظ، ووقع المعنى في القلب.

وذلك كالخط الحسن والبيان الشافي، والمتنافر كالخط القبيح، فإذا انضاف إلى التلاؤم حسن البيان وصحة البرهان في أعلى الطبقات ظهر الإعجاز لمن كان جيد الطبع، وبصيرا بجواهر الكلام، كما يظهر له أعلى طبقة الشعر (الباقلاني، إعجاز القرآن، صفحة 279)، وضرب في الطبقة العليا ويصنّف القرآن كلّه فيه، إذ بالرغم من وجود تفاضل بين الشعراء، إلا أنه لا يصنّف في هذه الطبقة غير القرآن الكريم.

5.4 التجانس: ويقصد به بيان أنواع الكلام الذي يجمعه أصل واحد، وهو على وجهين: مزاوجة، ومناسبة.

أمّا المزاوجة فهي التي تقع في الجزاء، كقوله تعالى: ﴿فَمَنْ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُواْ عَلَيهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ﴾[البقرة194]،

أي جازوه بما يستحق على طريق العدل، إلا أنه استعير للثاني لفظ الاعتداء لتأكيد الدلالة على المساواة في المقدار، فجاء على مزاوجة الكلام لحسن البيان.

ومثاله أيضا قوله تعالى: ﴿وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيرُ الْمَاكِرِينَ﴾[آل عمران53]، أي: جازاهم على مكرهم، فاستعير للجزاء على المكر اسم المكر لتحقيق الدلالة على أن وبال المكر راجع عليهم ومختص بهم.

وأمّا المناسبة فهي التي تدور في فنون المعاني التي ترجع إلى أصل واحد، فمن ذلك قوله تعالى: ﴿هَلْ يرَاكُمْ مِنْ أَحَدٍ ثُمَّ انْصَرَفُوا صَرَفَ اللَّهُ قلُوبهُمْ بِأَنهُمْ قوْمٌ لَا يفْقَهُونَ﴾[التوبة127]، أي: فجونس بالانصراف عن الذكر صرف القلب عن الخير، والأصل فيه واحد، وهو الذهاب عن الشيء، أمّا هم فذهبوا عن الذكر، وأمّا قلوبهم فذهب عنها الخير.

والباقلاني يكتفي هنا بسرد الأمثلة دون تخليل، وينقل عبارة الرمّاني بتصرف، وقد تحتّمت هذه المباحث البلاغية بما تصح أن تكون وجها للإعجاز، فالمبالغة في المعنى، وتضمين المعاني، والفواصل، والتصرف في الاستعارة، والإيجاز والبسط، كل هذا يمكن أن يلتمس فيها الإعجاز.

5. خاتمة:

يتبيّن لنا أنّ الباقلاني كانت له نظرة شمولية حول التداخل المعرفي بين البلاغة والإعجاز، وأنّ البلاغة لا تقع إلا بتكامل تلك الأجزاء المشكّلة للإعجاز، بل وهناك من رأى أنّ الوجه الواحد بمفرده يؤدي الإعجاز، أي أنّ التشبيه معجز والتجنيس مثله، وهكذا مع بقية الوجوه البلاغية.

وبهذا يحق لنا أن نقول بأنّ الباقلاني كان من العلماء الأوائل الذين كانوا على دراية بأحقيّة تكامل المعارف واتحادها من أجل إنشاء فضاء ثقافي رحب، كما يعدّ التكامل المعرفي بين البلاغة والإعجاز نموذجا واضحا في هذا المجال، إذ اعتبرتهما الثقافة العربية توأمين يتقاطعان ويتكاملان، ولا يعمل أحدهما بمعزل عن الآخر.

المصادر والمراجع

أبو الهلال العسكري. (د ت). *كتاب الصناعتين*. بيروت: المكتبة العصرية.

أبو بكر الباقلاني. (1997). *إعجاز القرآن*. مصر: دار المعارف.

أحمد ,ا .ب .(1409) .*كتاب العين* .إيران.

الخفاجي ابن سنان. (د ت). *سر الفصاحة*. (ابن سنان الخفاجي، المحرر) بيروت: دار الكتب العلمية ط/2.

حسن عباس. (2009). *إعجاز القرآن*. القاهرة: الشركة العربية المتحدة للتسويق، ط/1.

سعيد المطرقي. (1996). *دور البلاغة العربية في دراسة النص الأدبي وتقويمه* . الرياض: جامعة أم القرى .

سليمان عشراتي. (1998). *الخطاب القرآني (مقاربة توصيفية لجماليات السرد الإعجازي)*. الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية ابن عكنون، ط/1.

سميرة رفاس. (2013). التكامل المعرفي. *مجلة أبحاث العدد1* ، ص65- ص64.

صادق الرافعي. (2015). *إعجاز القرآن والبلاغة النبوية*. القاهرة: الصحوة للنشر والتوزيع، ط/1.

ضياء الدين بن الأثير. (1983). *المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر*. الرياض: منشورات دار الرفاعي الطبعة2.

عبد الرحمن بن خلدون. (د ت). *مقدمة*. القاهرة: دار الفجر للتراث.

عمار ساسي. (د ت). *الإعجاز البياني في القرآن الكريم*. الأردن: عالم الكتب الحديث.

محمد أبو موسى. (1997). *الإعجاز البلاغي- دراسة تحليلية لتراث أهل العلم*. القاهرة: مكتبة وهبة.

مصطفى المراغي. (بيروت). *علوم البلاغة- البيان والمعاني والبديع*. د ت: دار الكتب العلمية.